آراء الباحثين

في اصل الشعور الديني

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

كثيراً ما كنت اسأل والدتي في طفولتي ورأسي على حجرها سؤالاً كان يشغل بالي يومئذٍ كما يشغل بالي اليوم وهو « من اين اتى ابي ؟ » فتقول « من جدك » و « جدي ؟ » فتقول « من جد بابا » وهكذا الى ان نصل الى آدم كما هي العادة فاسأل وما « ومن اين اتى آدم ؟ » فتقول على الاصول « خلقهُ الله من التراب » وهنا تحاول كثيراً ان تقطع الحديث ولكنني ويا للأسف كنت استمر في سؤالي شأن من لم يستفرغ الحقائق المنشودة فاقول لها ببساطة الاطفال ومن غير وجل « ومن اين اتى الله ؟ » فتعبس في وجهي حالاً وتقطب جبينها وتقول « اسكت ... حرام ... كفر ... » فكنت اسكت حقاً ولكن على مضض وانا خائف ان اكرر سؤالي حتى لا اغضبها

تمثل هذه الصفحة المقتضبة من طفولتي تاريخ كثير من الاطفال غيري ، وما حب الاستقصاء المتسلسل الوارد فيها الا ميزة من ميزات العقل البشري وصفة ملازمة له لا تستطيع الوالدة مهما كانت محبوبة ومحترمة ان تقف في وجهه . فالسؤال عن اصل الموجودات او عن سبب حدوثها متأصل في النفس تأصل سائر الخصائص التي لازمت العقل البشري منذ ما انتقل من البساطة الحيوانية التي كان عليها . واذا صحّت نظرية النشوئيين فيما يقولون من ان سن الطفولة في الفرد يمثل عصر البشرية في المهد فيكون مثل هذا السؤال الذي ازعج والدتي كثيراً من الاسئلة التي خطرت للانسان الاول وهو لا يزال في الكهوف والبحيرات والغابات ؛ وكانت مساعيه يومئذٍ للحصول على الجواب الشافي بمثابة البحوث الاولى في الدين والاصل لتعليل السبب والمسبب واللازم والملزوم والازل والابد. لا جرم اننا نرى في جميع الاديان المعروفة خبراً طويلاً مستفيضاً عن بدء الكائنات ومصيرها وعن الجلد والظلمة والغمر وروح الله التي كانت ترفرف على الماء وعن خلق آدم من التراب وحواء من ضلعه وكذلك الخبر عند المجوس عن الاثني عشر الفاً من السنين الطوال التي يتصارع فيها اله النور (اهورامازدا) واله الظلمة (اهورامان) وعند الهندوكيين عن تلك العشرات من ملايين السنين التي تنتهي بتناهي الخلق واندثارها في براهما

ان هذه الصفحات الغزيرة المستوفاة عن البدء والمصير هي روح تلك الصفحة الاولى التي خطرت لي وانا مستند الى حجر والدتي وستخطر للاطفال امثالي ما بقيت لهذا العقل الذي زين الانسان تلك الخصائص النفسية التي يحق لنا ان ندعوها « السببية » « واللازمية » « والازلية » « والسرمدية » ، وفي نظري ان مذهب النشوء والترقي ان هو الا محاولة علمية استقرائية بعينها في قلوب العلماء مثل

هذا الشعور المتأصل في النفس لتعليل الانسان بالعودة بأصله الى الحيوانات من القردة فما دون الى الحيوانات ذات الخلية الواحدة . بيد ان هذه النظرية تقف وقوف سائر المذاهب والعقائد عندما تتساءل « ومن اين اتت الحياة لهذه الحيوانات الدنيا ؟ » ومتى وصل العالم حتى من كان دهريًّا بحثًا الى هذا المقام فهو ليس ببعيد كل البعد عن منطقة الدين وما له من ولع في تعليل المبدأ والمصير .

وفي الجزء الثاني من كتاب « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن القيم الجوزي (ص ٣٥) : « وقال صلى الله عليه وسلّم (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقول قائلهم هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليستعذ بالله ولينته »

وقرأت في مقتطف مايو الماضي للاستاذ نقولا حدّاد مقالاً طريفاً عن « الامكان » فيه خلاصة النظرية النسبية للاستاذ (أينشتين) في الزمان والمكان فقلت في نفسي هذه هي الضالّة التي انشدها وهذا بيت قصيدي لانهُ يعالج بالطرق الحديثة الفضاء ويضع لهُ حدًّا فلنصغ الى طريقته

قال الاستاذ حدّاد : « لذلك ما نسميهِ فضاء هو فضاء محدود بالمادة ؛ متناهٍ ، لان المادة متناهية اي ان لها قدراً معيناً والفضاء محدود بها ؛ لهُ اول ولهُ آخر » ، فقلت في نفسي ان (اينشتين) وجميع شهرته العالمية لم تحل وللأسف شيئاً من العقدة لانني لا ازال حتى هذه الساعة اسأل بحكم فطرتي وتركيب عقلي واختباري اليومي في الموجودات « ما الذي كان يا ترى قبل اول الفضاء وما الذي يأتي بعد آخره ؟ » ولشد ما كان تعجبي اذ رأيت الاستاذ حدّاداً نفسه يعقب على جميع ما اتى بهِ من البراهين لاثبات ان المكان محدود بجملة واحدة تهدم هذا التحديد وتعود بنا الى المواقف المتحيرة التي وقفها حكماء الهند واليونان والعرب منذ الوف السنين وهي قوله « ولا تسل عما قبل الاول وعما وراء الآخر فهذا مستحيل على العقل البشري تصوره » وهو لا يختلف كثيراً من قول والدتي ورأسي على ركبتها « اسكت ، . . حرام . . . هذا كفر . . »

ثم اني لم اقصر سؤالي لها على آدم وتسلسله فقط بل كثيراً ما كنت اسألها عن السماء ايضاً وما فوقها وعن الارض وما تحتها فلم يكن ليصعب عليها ان ترد عليّ بذكر السبع الطباق وبقرن الثور ولكنني كنت ألاقي منها نفس الاعراض والتقطيب متى جاوزت السماء السابعة الى العرش وقمر الارض الى قرن الثور

فانت ترى ان البحث في المكان واللانهاية مثل البحث في الزمان والازل خاصيّة من خصائص العقل البشري لا محيد عنها ، وقد جال فيها علماء الطبيعة كما جال فيها الحكماء المتقدمون وعلماء الدين ، ولعمري ان المكتشفات الحديثة في علم الفلك وما توصلت اليه من تقدير الابعاد بالسنين الضوئية قد ضاعفت حيرتنا من هذا الكون وابهته وجلاله ؛ وكل طالب علم يذكر كيف قضى في فراشه الليلة الاولى التي رصد فيها الافلاك بالمرقب لاول مرة وكيف سبح وهمه ساعات بين الاجرام السماوية محاذياً لها حتى تراءت له حدود اللانهاية فعاد خاسراً وهو حسير . ومع كل هذا

السلاح العقلي الدقيق الذي نتسلح به اليوم فنحن ازاء هذه المعضلات الزمانية المكانية لسنا ببعيدين عن مقام الحيرة التي بلغها اعلام التصوف من رجالنا الماضين ، وبخاصة الحيرة من اللانهاية فقد مثلت هذه الحيرة ادق الادوار وأخطرها في تصوراتنا الدينية ومعتقداتنا الروحية

ولقائل ان يعترض فيقول ان ما ذهبنا اليه من هذه الخصائص العقلية التي مازت الانسان لا ينطبق على الانسان الوحشي الاول فمثل هذه المرتبة الراقية في التفكير تحتاج الى انسجام منطقي لم يبلغه ، وان الطفل ابن الخامسة من ابناء اليوم هو في مقام الحكماء اذا ما قيس بالانسان النيندرتالي مثلاً ، ثم ان الدين قضية اجتماعية من اولها تولدت من اتصال الانسان بأخيه الانسان ولا يكفي في تعليلها الاعتماد على الشعور الفردي مهما كان خطيراً ، وجوابي عن ذلك كله ان الشعور باللانهاية على انواعها ، اللانهاية المكانية التي لاقرار لها واللانهاية الزمانية التي لا منتهى لها ، واللانهاية الطبيعية في القوة التي لا تنضب وظواهرها الجبارة التي يتضاءل عندها الانسان فينقاد لاحترامها وتبجيلها والرهبة منها صاغراً ، كل ذلك كان له اعظم الاثر في تفكيرنا الديني منذ ما جاز ان يطلق على هذا الانسان انه حيوان مفكر

المذهب الاجتماعي الطبيعي في تعليل الدين : ان هذا الذي ذكرناه في تعليل الدين يحتاج ولا شك الى شيء من الارتقاء العقلي قد لا يكون موجوداً في البشر الاول ، لذلك رأينا ان نطلع القراء على خلاصة رأي الاجتماعيين في هذا الباب وكيف عللوا الظواهر الدينية منذ نشأتها الاولى معتمدين في الاكثر على ما كتبه الاستاذان (هوبكنس) و (جيدنغز) وعلى ما ورد في « الموجز في علم الاجتماع » :

ان المشاكل المعضلة التي لقيها الانسان في حياته على وجه الارض فولّدت في نفسه الافكار الدينية وما يتعلق بها من أعمال هي مشاكل شديدة التعقد ، والعلائق القائمة بينها دقيقة جداً ، فنرى ان العقل البشري بما بذله من المساعي الجدية للخروج من التيه المرتبك الذي وضعته فيه ظواهر الطبيعة والخلاص من الحيرة المختبطة التي احاطت به من البشر انفسهم قد هيأ التربة الصالحة التي نمت فيها شجرة الدين ، فيجوز ان يقال اذن ان البشر الاول وهو منتقل حديثاً من المرتبة الحيوانية العجماء بعقل لا يفضل كثيراً عقل الحيوان حلق في هذا الكون فرأى ما فيه من قوى وحشية وبشرية همجية فاعتراه الخوف ولكنه لم تتضح له جلية هذا الشيء المخوف اذ كانت الافكار التي تجول في نفسه لا تزال مجموعة صور خليط لم تدخلها بعد عوامل التنسيق والتبويب ، بل امتلأ قلبه ذعراً من شيء اطلق عليه العلماء اسم « المرهب الاعظم » او « المبهم » وعنوا به قوة مرهبة محجبة تكتنفها الاسرار وتحيط بها الهواجس تسلطت على لب هذا البشر الوحشي وضايقته ولازمته حتى حملته على اتخاذ اتجاه خاص نحوها فكان يفكر كيف يفسر هذا المرهب الاعظم ويعلله ويقوم بمعاملته والتقرب اليه ومن هنا ابتدأت فكرة الاسترضاء والاستغفار والعبادة كما يتضح مما يأتي

فالبشر حتى منذ ما كان على الحالة الحيوانية ادرك معنى التفوق او السيادة من جهة والخنوع والخضوع من جهة اخرى ، وتوصل الى فهم بعض الاشياء والاحاطة بمعناها وذلك لفهم الناس من حوله ، وتعلم كيف يعقد أواصر الاتصال بهم ويمشي اموره معهم، ومن المعقول جداً ان يمتد هذا الفهم وتزداد أواصر الاتصال حتى يتسعا فيشملا الظواهر الطبيعية المحيطة به والتي لم يدرك كنهها ولكنه حرص على استمالتها اليه واسترضائها . لم يدرك البرق والرعد والعاصفة والسيل والشلال مثلاً ولكنه توسل بجميع الوسائل التي سبق له ان استعان بها لاسترضاء أخيه الانسان لاكتساب عطفها ورضاها . لا جرم انهُ فسر كل شيء مستغرب مجهول بالمشاعر التي تجول في نفسه وتجول في نفس البشر اخوانه وعزا اليها ما عزاه اليهم وعامل هذه المجهولات التي اعجزهُ فهمها بنفس الطريقة التي عامل بها اخوانه ومشى حاله معهم

وعلاوة على ذلك فقد دلّتهُ التجارب على ان الطريقة التي نجحت في اكتسابه معونة البشر اخوانه واسترضائهم قد نجحت هي ذاتها في اكتسابه معونة الحيوانات واسترضائها . وقد تجلى ذلك له في تدجين بعضها والعمل لتأنيسها . ثم ان الصراع الذي كان قائماً بينهُ وبين الحيوانات البرية قد أرشدهُ حتى قبل مباشرته عمل التدجين هذا الى ان عقول هذه الحيوانات تشبه بعض الشبه عقول الناس ممن كان عليه ان يتصل بهم ويعاملهم . فاذا كان في وسعه ان يعيش مع الناس ويتعامل مع الحيوانات باتباعه بعض القواعد وسلوكه بعض السبل ، افليس من المعقول ان يستنتج استنتاجاً منطقياً خالياً من الارتباك والتعقيد ان هذه القواعد والسبل نفسها تنجح في فهم واسترضاء اشياء اخرى منتشرة حوله في الكون لا تقل غموضاً وغرابة ؟

وقد احتفظ الانسان بهذا الاتجاه العقلي المنطقي في جميع اعماله وطوال حياته ، واذ كان جاهلاً ان في الدنيا اسباباً غير شخصية تصدر عن قوى طبيعية عمياء فقد توهم الشخصية في كل سبب مرضاً ونسب الى الظواهر الطبيعية من حوله التي لا دخل للناس فيها ايدي الاشخاص ، اذن فما دام السبب الذي يحدث النتيجة شخصاً فالواجب ان يكون شخصاً مثل سائر من عرف من الاشخاص — شخص حب وكره، شخص عطف ونفرة، شخصاً مكوناً من قوة مستغربة غامضة ، عليه ان يعاملها بطريقة من الطرائق . فاذا كانت هذه القوة ساخطة فالواجب استرضاؤها وتسكين روعها ، والطريقة المثلى الوحيدة التي تخطر بالبال هي الطريقة التي يسترضي بها البشر متى كان ساخطاً لذلك تخيل الانسان الطبيعة جميعاً حافلة بالارواح من غطه ، ثم ان شخصيته ذاتها لم تكن اقل غموضاً وتعمية بالنسبة اليه من ظواهر الطبيعة وكائنها فهو اذا ما صاح سمع صوتاً يهزأ به يتردد من الروابي والغابات وهو الصدى الذي لا يدهش أحداً منا ، واذا ما انحنى على البركة ليشرب رأى في اعماقها وجهاً ينظر اليه مثل وجهه او وجه من يكون معهُ من الرفقاء وهو الصورة المنعكسة عن سطح الماء التي لا يكترث لها احد منا ، واذا ما نام حلم في منامه انهُ يجول ويقوم بشتى الاعمال ولكنهُ عند ما يصحو يجد انهُ لم يغادر البقعة

التي نام فيها ، وفي بعض الحالات الاخرى يضطجع ثم يقوم ويمشي وهو نائم الى ان يصطدم بشيء من الاشياء فيصحو، اذن فهذه الحوادث الطارئة والاختبارات المتتابعة التي مشى فيها وجال وتكلم هي في منطقة البسيط اختبارات حقيقية وحوادث واقعة لاغبار عليها . فكيف يفسرها ؟ كيف يستطيع المرء ان ينام ويمشي في آن واحد من غير ان يغادر مكانه ؟ والتعليل الوحيد الذي يخطر له من جميع هذه المشاهدات هو انه شخص مزدوج مؤلف من قرينين — والقرين في العربية هو النفس او هو الشيطان المقرون بالانسان لا يفارقهُ ، وكلا المعنيين لا يبعد عن معنى الازدواج الذي قصدناه — ففي المنام يبقى احد قرينيه في موضعه والقرين الآخر يتمشى خارجاً ، ومعنى ذلك في حسابه ان لهُ روحاً وهذه الروح تلازمهُ في صحوه ، واما اذا نام او اصيب باغماء أو ذهول فانها تغادر جسمه وتروح وتغدو بعيدة عنهُ ، وهي محجوبة عن نظره لا يستطيع مهما حاول ان يراها ، ولكن اي برهان على وجودها يا ترى أصح وأسد من هذا البرهان المحسوس الملموس ؟

ثم انه بسائق العقل البسيط الذي يحمله في رأسه يستنتج ان روحاً تشبه هذه الروح تحل في الطبيعة كلها وهذه الروح هي شخص ذو خصائص ذاتية مثله ومثل رفقائه، تحب وتبغض ولها شهوات وانفعالات وعواطف ويساورها الغضب وتشتهي الهدايا والمنح وتصاب بالهوى والوسواس ، اذن فهي شيء ينظر المرء اليه بالرهبة والخوف ويعقد معهُ أواصر الصلح والسلم والوئام

ثم هنالك حادثة الحوادث — هنالك الموت وما فيه من غرابة وغموض وابهام ، وقد دلتنا جميع الملاحظات التي جمعناها على أن الشعوب الابتدائية البالغة درجة التفكير في الامور تهتم بالموت، فالانسان الاول وهو مقيم دائماً في وسط القوى الوحشية التي قضت عليها المدنية فيما بعد او أخضعتها ودجنتها لخدمة البشر قلما مات ميتة طبيعية حتف أنفه ، فاذا كتب له أن يعيش فيموت هذه الميتة فانها تكون حينئذٍ ظاهرة غريبة تفسر على هذا النمط المزدوج القائم على وجود آخر هو الروح المحجوبة أو القرين الخفي

والغالب أنهُ يموت قبل بلوغه أرذل العمر وهو سن الشيخوخة البالية اذ يقول انه لا يرى لذة في الحياة بل تكون الحياة على عكس ذلك لا تزال لذيذة حلوة والموت نكبة لا راحة ، ولما كانت الوحوش البرية الضارية والبشر الاشد منها توحشاً وشراسة واقفة له بالمرصاد في كل ناحية للانقضاض عليه فالخوف الطبيعي الغريزي من الموت كان ابداً ماثلاً أمام عينيه ، ولما أخذ يفكر في هذه الاحوال والاشياء خطر له هذا السؤال بالطبع وهو « ما هو الموت ؟ » فهل يجد الجواب الشافي عن هذا السؤال الاّ في تلك الاختبارات التي تشبه الموت كثيراً ؟ لقد نام وأفاق، ورأى في بعض الاحيان أناساً صرعوا في القتال فأغمي عليهم حيناً من الزمن ثم عادوا الى وعيهم ، ورأى آخرين أصيبوا بغشيان او دهشة وذهول فلما صحوا قصوا على الناس ما رأوا وما سمعوا ، أليس الموت شيئاً مثل النوم والاغماء والذهول الاّ ان غياب الروح فيه عن الجسد أطول أمداً ؟ أولا تكون الروح أو

الترين في حالة الموت حية في مكان آخر ترى وتسمع وتتلذذ وتحيى وتشتهي وتنفعل وتحب وتبغض كما لو كانت في الجسد ؟ ثم تحدث حادثة مشؤومة ليس لها سبب ظاهر ، فليت شعري لم لا يكون مبعث من الاصوات الساخطين قد أحدثها ؟ فلو هذا الميت لما كان حيًّا انتقم لنفسه ، والآن وهو ميت وقد غضب واغتاظ فالواجب ان يسترضى ويهدأ روعه بنفس الطريقة كما لو كان حيًّا

وربما كان الميت رئيساً كبيراً أو حاكماً للجماعة مطلقاً فيخشى منهُ في موته بقدر ما كان يخشى في حياته وزيادة ، لأن المعروف من أمره وهو ميت أقل بكثير مما كان يعرف وهو حي . لذلك تغلفهُ الموت بالاسرار وحجبهُ بالطلاسم والمعميات فاحاطهُ بالاسباب الداعية إلى الذعر والرهبة ؛ وهكذا نشأت عبادة السلف أو بمثل هذه الطرق كانت الافكار الدينية الاولى الخالية من الانسجام للاعراب عن نفسها ، وهي أفكار طافحة بالمتناقضات مثل أفكار الرجل الابتدائي أو مثل افكار الطفل الصغير في أوائل تفكيره ، ومغشاة مبهمة « ومتبدلة » خليط بعضها فوق بعض تشبه العواطف والانفعالات والاندفاعات المتولدة في نفسه من اتصاله بالكون وما فيه من أشياء وأشخاص . على ان هذه الافكار هي جهود جهدها لانقاذ الموقف الكريه يشبه من العمل مهما كان نوعه ، هي بوادر تعليل نظري للعالم الذي يعيش فيه ، وهي المحاولات المغلوطة الاولى للحصول على الوسيلة التي يتمكن بها من اخضاعه والتسلط عليه . هي آراء منعكسة عن الجمعية البشرية التي هو جزء منها وعضو فيها ، وهذه الآراء نظائرها في نفسه وفي نفوس الناس من حوله ممن يتصل بهم ؛ فالآلهة التي يصطنعها لنفسه يمثلها على غراره وغرار اخوانه ولكنها اعظم منهم شأناً وأشد بأساً وأشدُّ حكمةً وأكثر ابهاماً وأقل جلاء

وقصارى رأي الاجتماعيين الطبيعيين في نشوء الاعمال الدينية والعبادات هو ان اتصال الانسان الابتدائي الاول بالطبيعة وبالناس من حوله ادى الى استحداثهما في نفسه فهما من صنعه ويتولدان من عنده وينعكسان عن تجاربه . وكلما عاد الطفل الصغير وأضحى على اتصال بالشخصيات الاخرى تعلم ان يكيف نفسه بحسبها وعلى مقتضى الاحوال التي تحيط بها فهو يرى انهُ اذا قام ببعض الاعمال استرضاها وعقد اواصر الوفاق معها وان قام بغيرها أغضبها وأثار حفيظتها ؛ فهنالك اشياء تستدعي سرورها واخرى تسيئها ، ومن مثل هذه المفاجآت الاختبارية الدائمة يتعلم ماذا يعمل لاكتساب رضاء الشخص الآخر . وعلى اساس هذا الاختبار يستخلص لنفسه قاعدة عامة ويختار دستوراً يوافق جميع الناس . والآن وهو يعتقد ان الظواهر الطبيعية يسببها اشخاص فانهُ يتبع في معاملته روح الجبل او روح العاصفة مثلاً نفس الخطة التي يتبعها في معاملة الناس . ويجب ان يكون الاشخاص الذين يحدثون هذه الظواهر ويديرون امرها مثل الاشخاص الذين عرفهم لذلك يتخذ اتجاهاً خاصاً نحوهم ويستميلهم بالهدايا والقرابين ويسكن غضبهم او يكتسب رضاءهم ووفاءهم بالثناء عليهم والتضرع اليهم واقامة الصلاة لتمجيدهم